هوامش

في عمله المعروض في متحف الفن الحديث في نيويورك تحت عنوان «دروس الساعة»، يسلط إسحاق جوليان الضوء على حياة المناضل الأميركي فريدريك دوغلاس، وينقب في جوانب لم تكن معروفة عن الرجل الذي تحول إلى رمز للتحرّر

تمثال لدوغلاس في العاصمة واشنطن (دوغلاس غراهام/Getty)

فريدريك دوغلاس

إسحاق جوليان يستعيد «دروس الساعة»

ريم ياسر

في سيرته الذاتية، يحكي المناضل الأميركي فريدريك دوغلاس (1818 - 1895)، أنه كان طفلاً في الثانية عشرة حين سمع صاحب المزرعة الذي كان يعمل في خدمته وهو ينهر زوجته لأنها أقدمت على تعليمه القراءة. هذا الحوار الذي دار بين الرجل وزوجته، دفع دوغلاس إلى إدراك قيمة المعرفة وتأكده أنها الطريق الذي سيقوده من العبوديّة إلى الحريّة. منذ ذلك الحين، صمّم الطفل الصغير على تعلم القراءة والحصول على المعرفة بأي وسيلة حتى لو اضطر إلى سرقة الكتب. وحين صار شاباً، قرّر دوغلاس الهرب من العبودية ليصبح بعد سنوات أحد أهم الشخصيات إلهاماً في مسيرة الكفاح التي خاضها الأميركيون السود من أجل التحرّر. في عمله المعروض في متحف الفن الحديث في نيويورك (MOMA)، حتى 28 من سبتمبر/ أيلول الحالي تحت عنوان «دروس الساعة»، يسلط الفنان وصانع الأفلام إسحاق جوليان الضوء على حياة فريدريك دوغلاس، وينقب في جوانب لم تكن معروفة عن هذا المناضل الذي تحول إلى رمز للتحرّر. يتكون العمل من عشر شاشات تعرض معاً سرداً بصرياً من حياة دوغلاس وعمله ومقتطفات من خطاباته وأعماله الأدبية ومراسلاته الشخصية. يسلط العمل الضوء أيضاً على اهتمام المُناضل الأميركي بالتصوير الفوتوغرافي وإيمانه بأهمية الصورة وتأثيرها، رغم حداثة العلم بالتصوير الفوتوغرافي وقتها. يقول إسحاق جوليان إن دوغلاس كان الرجل الأكثر تصويراً في عصره، وقد أدرك أن التصوير الفوتوغرافي يمكن أن يتحدى الأفكار العنصرية ويعزز حرية وحقوق الأميركيين السود والأشخاص المستعبدين في جميع أنحاء العالم. أدرك دوغلاس أن الصورة بمقدورها أن تغير النظرة النمطية للأشخاص ذوي البشرة السوداء، والذين غالباً ما كانوا يُصوَّرن في أوضاع مزرية ومهينة.

يتضمن العمل عرض مجموعة من الصور الفوتوغرافية المطبوعة على ورق فضي لدوغلاس، وكتيبات لخطاباته وطبعات أولى من مذكراته ونسخة طبق الأصل من مخطوطة نادرة تعرض أفكاره حول التصوير الفوتوغرافي. تُعرض هذه المتعلقات في قاعة مغطاة بالكامل بورق حائط مصمم خصيصاً من أجل المعرض. يتألف ورق الحائط من صور لمئات الوثائق والأوراق وقصاصات الصحف والإعلانات المطبوعة والرسائل التي كتبها دوغلاس بخط يده، أو التي كتبت إليه.

في بداية العرض، يظهر دوغلاس (يلعب دوره الممثل راي فيرون)، على شاشتي عرض من زاويتين مختلفتين وهو يمشي داخل أحد المتنزهات، بينما تعرض الشاشات الأخرى صوراً مشوشة لأوراق ملونة معلقة من أغصان الأشجار. تتغير الصورة ببطء ويظهر مشهد آخر لعملية إعدام خارج نطاق القانون لشاب أسود من أحد الأفلام الأميركية المنتجة عام 1920. يصاحب المشهد الأخير تعليق صوتي لبطل الفيلم يردّد إحدى العبارات التي ساقها دوغلاس في مذكراته، فيقول: «كنت أشعر في بعض الأحيان أن تعلُّم القراءة كان نقمة وليس نعمة، فقد أتاح لي رؤية واضحة لوضعي البائس من دون علاج، وفتح عيني على الحفرة الرهيبة التي أُحاصر بداخلها مع عدم وجود وسيلة للنجاة منها».

تُعيد المقاطع المصورة التي تبثها الشاشات العشر تمثيل عدد من محاضرات دوغلاس التي ألقاها في مناسبات مختلفة. تُعرض هذه المقاطع جنباً إلى جنب مع مقاطع فيديو حديثة لأعمال الشغب التي وقعت في الولايات المتحدة عام 2015، بعد مقتل الشاب الأسود فريدي غراي في ظروف غامضة بعد عملية توقيف عنيفة.

يسلط العمل أيضاً بشيء من التفصيل الضوء على النساء في حياة فريديرك دوغلاس. بين هذه النساء، تبرز زوجته الأولى آنا موراي التي توفيت عام 1882، وهي من أصل أفريقي، وزوجته الثانية المناضلة في مجال حقوق المرأة هيلين بيتس، وهي بيضاء مناهضة للعبودية. كما يُبرز العمل أيضاً علاقته بالناشطتين البريطانيتين والمُناهضتين للعبودية آنا وإيلين ريتشاردسون اللتين جمعتا الأموال لتحرير دوغلاس عندما هرب من العبودية عام 1846. «دروس الساعة»، هو عنوان آخر محاضرة ألقاها دوغلاس في واشنطن عام 1894. وقد رحل بعد ذلك بعام. تطرح هذه المحاضرة الأخيرة، كما يقول إسحاق جوليان، تساؤلات عدة حول المواطنة، وهي أول إعلان احتجاج ضد تفوق البيض. اختار الفنان هذا العنوان لأنه شعر، كما يقول، بأن دوغلاس ينبهنا من خلاله إلى عدم الانجرار نحو المسار الخاطئ نفسه. في هذا الفيلم، يتخيل الفنان خطّاً ممتدّاً على مدار 200 عام، من زمن دوغلاس إلى اللحظة الحالية، وتجسده تلك التقاطعات الدالة بين سيرة المناضل الأميركي ومشاهد الاحتجاجات العنيفة التي صاحبت حركة حياة السود مهمة. لهذا، يشير الفنان في تقديمه للعمل إلى أن هناك العديد من التفاصيل والنقاشات غير المكتملة بشأن مسألة المواطنة في الغرب.

باختصار

يتكون العمل من عشر شاشات تعرض معاً سرداً بصرياً من حياة دوغلاس وعمله ومقتطفات من خطاباته وأعماله الأدبية ومراسلاته الشخصية

■■■

يسلط العرض الضوء أيضاً على اهتمام المُناضل الأميركي بالتصوير الفوتوغرافي وإيمانه بأهمية الصورة وتأثيرها

■■■

تُعيد المقاطع المصورة التي تبثها الشاشات العشر تمثيل عدد من محاضرات دوغلاس التي ألقاها في مناسبات مختلفة

وأخيراً

كان طفلاً كبيراً

سما حسن

لا أدري من أين أبدأ حكايته، من النهاية والفصل الأخير، حيث بلغتني أخبار مرضه، وأنّه يصارع الموت بسبب فشلٍ كلوي حادّ. وهذا على خلاف ما دأبتُ على سماعه من أخبار أهلي في غزّة، فكلّهم يموتون بسبب القصف بالقذائف والصواريخ، ويفعلون ذلك منذ نحو عام، أم أبدأ حكايته منذ عرفته في المخيم وكأنّه من لوازمه بأنّ هناك دائما «المبروك» الذي يعيش ويموت كطفل، فيتبارك اللاجئون به ويتشاءمون حين يغيب. عندما بلغتني أخبار مرضه، استغربت من كمّ الرسائل التي تصل إليّ كلما تيسّرت خطوط اتصالات شبكة الإنترنت في جنوب القطاع من أقارب وجيران، وكلّهم يكتبون إلي بحزن وأسى عن مرضه، تخيّلوا أنهم يهتمون بإنسان مريض، ويتمنّون له الشفاء، ويتضرّعون إلى الله أن يحدُث ذلك وكأنهم يتحدّون الموت الفاغر فمه، والذي يقطُر دماً، والمُحدق بهم من كل ناحية، ولكنهم، في هذه المرّة، يرونه مريضاً بمرض مثل كل الأمراض التي تصيب الأناس العاديين في كل أنحاء الأرض، وكأنّهم لا يصدّقون أن الناس قد يموتون بكامل أجسامهم، ولمرضٍ ما، من دون أن يتحوّلوا إلى أشلاء.

تخيّلتُ بؤسهم وقلّة حيلتهم، وهم يأملون الحياة لأحدهم، ويتوافدون على زيارته في المشفى، ويتتبعون أخباره، وتتطوّر حالته، ويكتبون إلي كل شيء بالتفصيل، ذلك التفصيل الذي لا يخلو من رجاء أن يعود ليمارس دوره في هذه الحياة، ليجلس في ذلك الركن الظليل، وكي يطمئنوا لوجوده، وكأنّ الحي لا يصبح حيّاً بدونه، والدار لن تكون داراً ما لم يقف طويلاً أمام بابها يتأمّل المارّة، ويلوح لهم وينادي بأسمائهم، وتستغرب كيف أنّه لا ينسى الأسماء حتى لو غاب أصحابها عنه نصف قرن.

عندما عرفتُه كنت طفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها في مخيم خانيونس، وكان يبدو طفلاً غير عادي، لأنه قد ترك المدرسة مبكّراً ولم يفلح في إتمام الصف الرابع، ورغم ذلك كان يجيد العدّ، ويحفظ الأرقام، ويحبّ كثيراً أن يردّد الأناشيد، ويلهو مع الصغار ويحنو عليهم. ومن هنا، نشأت بيني وبينه صداقة، حيث كان دائماً ينقذني من أن تنجرّ قدمي الصغيرة نحو الشارع القريب من بيتنا في غياب أمّي في عملها، حيث تعمل معلمة، وفي سهو طارئ من عيني جدّتي المرأة العجوز ثقيلة اللحم، والتي لم تكن تقوى على النهوض من مكانها، فكان يُسرع بإعادتي إلى حِجرها قبل أن تفتقد غيابي، ولذلك نشأت بيننا تلك العلاقة، وشعرتُ أنّه الحامي والمنقذ من محاولاتي لاكتشاف الحياة، بعيداً عن حدود مخيم خانيونس للاجئين.

في ساعات المساء، كانت النسوة في المخيم يجتمعن للسّمر عند جدّتي، وتأتي به أمّه إلى مجلسها باعتبارها أكبر نساء المخيم سنّاً، وأكثرهنّ خبرة، فتشكو لها إحداهن من زوجها المُسرف في تدخين الدخان العربي، فيما تشكو أخرى من تأخّر حملها، وتُلقي جدّتي بنصائحها ووصفاتها. وحين تقارب الجلسة على الانتهاء يأتي دوره بصفته «مبروك المخيم» لكي يخبر كل امرأة حامل تجلس في تثاقل حول جدّتي عن نوع جنينها القادم، وحين يتهلّل وجه إحداهن بأنّها ستأتي بولد تفضّ جدّتي الجلسة، وتطلب من المبروك أن يذهب إلى النوم باكراً قبل أن يخبر إحداهنّ بأنها ستضع أنثى، فيكون ختام جلسة السّمر محزناً وكئيباً.

> رحل في هدوء
> كما عاش في هدوء،
> كطفل كبير في عالم لا يُجيد
> الاحتفاظ بالأطفال

شاءت الأقدار أن يصبح ذلك الطفل الكبير شقيق زوجي، وأن نعيش معاً في بيت واحد أكثر من ثلاثين سنة، فلعبنا سويّاً لعبة النساء الحوامل، إلى أن أُصبت بعدوى الخوف من العالم خارج أسوار البيت مثله، حتى جاءت الحرب، وأجبرتني على النزوح ثم السّفر بعيداً. أما هو فمثل كلّ أهل الحيّ، كتب عليه النزوح مرّة ثمّ أخرى، حتى داهمه المرض، وهو الذي لم يشتكِ مرضاً من قبل، وكأنّه يحتجّ على كل ما يحدُث حوله، حتى رحل في هدوء كما عاش في هدوء، كطفل كبير في عالم لا يُجيد الاحتفاظ بالأطفال.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**